قضية التراث

تحرص الدارة دائما وكالعهد بها أن تقدم لقارئها كل دراسة هادفة تتناول قضية التراث العربى الاسلامى باعتبار هذا الموضوع من أهم القضايا التى شغلت العلماء والمتخصصين فى مجالات الفكر والادب والتراث

للدكتور

عبد الوهاب عبد السلام ابو النور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلاهادى له ، ونشهد أن لا الله الا الله وحده لا شريك له ، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ،

أما بعد ..

فان قضية التراث العربى الاسلامى من اهم القضايا التى شغلت المثقفين والعلماء والمفكرين في العصر الحديث ، ومنذ بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية الحديثة ولا تزال حتى الان حية متجددة ، لما كان لهذا التراث من قيمة في الماضى ، ولما له في الحاضر والمستقبل من اهمية قصوى ، اذ هو يمثل قيما ثابتة هى الملجا والملاذ للامة الاسلامية .

وقد كتب عن التراث الكثير ، وقيل عنه الكثير ، وكان موضوعا لمناقشات حامية بين المثقفين ورجال الفكر . وقد حاول مخلصون من أبناء امتنا ، مدفوعين بدافع الحب والحماسة له ، العمل على خدمته ، بالنشر والتحقيق تارة ، ودراسة موضوعاته تارة اخرى ، كما كان جزءا من نشاط بعض الهيئات والمؤسسات العلمية . وقد بذل هؤلاء جميعا الجهد في سبيل الوصول بامتراث الى الصورة التى نرضاها له .

ورغم هذه الجهود والمحاولات فثمة حقيقة هامة يجدر الا تغيب عن بالنا ، وهى أن الاعمال السابقة ، على قيمتها وجدواها ، لم تصل بالتراث الى مانرجوه ويرجوه له محبوه ، فالكثير من أجزائه ليس بين أيدينا الان اذ تقتنيه مكتبات أجنبية في الشرق أو في الغرب ، أو تحويه مكتبات الافراد ، ولم توضع بعد خطة شاملة لحصره وجمعه وفهرسته ، ونشره وتحقيقه وخدمته ، وهذا من شأنه أن يعطل اجراء الدراسات العلمية المبتغاه والتى تؤدى الى الكشف عن كنوزه .

ان ما نود أن نذكره الان هو أن حالة تراثنا الفكرى وقصور الجهود

التى تبذل لخدمته يجعلان من الضرورى اعادة طرح قضاياه على العلماء والباحثين والمفكرين ولذلك فرغم كل ما كتب عن التراث فنحن نعيد طرح قضيته من زوايا نرجو أن تكون جديدة وأن تغطى جوانب لم يتطرق اليها الباحثون أو لم يعطوها ما هى جديرة به من اهمية ، فهو طرح جديد لقضية قديمة . ونحن نستهدف بذلك تحقيق عدة أمور :

أولا : توضيح أهمية التراث فى وصل ماضى الامة ، وبيان أن قيمته لا ترتكز على قيمة دينية ولغوية فحسب ، ولا تبنى على الحماسة له فقط دون قناعة موضوعية ، بل أن له دورا حيويا فى حياة الامة الاسلامية فى الحاضر والمستقبل .

ثانيا : اسماع صوت التراث للناس ، ففى عصرنا الحاضر تغلب أصوات أخرى كثيرة بحيث ضاع أو كاد صوت المتحدثين عن التراث فى خضم هذا الزحام ، فلا عجب اذا وجدنا أن الكثيرين ممن يدخلون فى عداد المثقفين والغالبية من الشباب لا يكادون يعرفون عن التراث الكثير أو القليل ، ولا يكادون يعرفون عن اعلامه شيئا ، بل أن البعض منهم قد يتخذ من غرابة اسمائهم موضوعا للهزء والسخرية والتندر ، بينما هم فى ذات الوقت يعرفون أدق الدقائق والتفاصيل عن نجوم الادب والفن والرياضة فى الشرق أو الغرب ممن لا ينتمون الى بيئتنا ولا يكونون أدنى قدر من وجداننا . وهى غربة للتراث بين أهله لا ترضى محبيه العارفين لقدرة الحريصين على مستقبله .

ثالثا : يرتبط بالنقطة السابقة ضرورة تعريف الشباب بقيمة التراث وتعريفهم بأسلافهم العظام ، حتى يأخذوا منهم القدوة والاسوة والمثل ولا يلتمسوها من أعلام فى الشرق أو فى الغرب ، وحينئذ يدركون أن أعلامهم كانوا ، وبكل المقاييس ، ممن تفخر بهم أية أمة ، وتزدان بهم أية حضارة.

ولا شك أن هذا يعطيهم الثقة بأنفسهم ويؤكد أن التقدم ممكن ما امتلك الانسان اسبابه ، وأنه ليس حكرا لجنس أو شعب ، بل أن العلم يدين للجهد والعمل المنبثقين من الايمان .

رابعا : ويرتبط بهذا أيضا توجيه انظار شباب الباحثين الى قيمة التراث

وأصالته وخصوبته ، والى جدوى البحث فيه والتنقيب عن كنوزه ، بما فى ذلك من قيمة علمية محققة ترضى كرامة الباحث ، حتى لا تخلبهم موضوعات أكثر بريقا ولمعانا · كذلك من الضرورى في هذا الصدد توجيه انظار التربويين والقائمين على أمور التعليم فى المدارس والجامعات الى ضرورة توجيه الدراسة الى جوانب التراث فى كل مجالات العلم التى كان لسلفنا اسهام فيها ، أحياء لهذا التراث من جهة وحتى لا ينقرض المشتغلون به من جهة أخرى ·

خامسا : وضع خطة شاملة لحصر التراث وفهرسته وجمعه ، ثم نشره وتحقيقة وصدمته ، ثم دراسته الدراسة العلمية المبتغاة التى تكشف عن جوانب القوة والاصالة فيه ، وهى خطة تتضمن عناصر وأبعاد جديدة تكون فى مجموعها برنامجا متكاملا ، يمكن اذا تحقق أن يصل بالتراث الى ما نرجوه له من خير ·

هذه هى الاهداف التى نتوخاها من اعادة طرح قضية التراث راجين أن نوفق الى اثارة الاهتمام بهذه القضية وأن تلقى ما هى جديرة به من الدراسة والاستجابة ·

ابعاد التراث :

قد يكون من المفيد أن نبدأ بتحديد مفهوم واضح للفظ التراث عن طريق توضيح أبعاده · ذلك أن كلمة تراث تعنى مفهوما واسعا ، يضم كل نتاج الحضارة من علم وفكر وفن وآثار ولكن هل هذا هو المفهوم الذى يعنيه المشتغلون بالتراث ؟ ان كلمة تراث تعنى عند المشتغلين به المخطوطات العربية التى تضم التراث الفكرى العلمى فقط ·

وفى هذا الصدد نجد أن التراث ينساب فى أبعاد : زمانية ومكانية ولغوية ، وهى أبعاد مترابطة أشد الارتباط ، بل ربما كانت ممتزجة كل الامتزاج ·

فمن الناحية الزمنية يضم التراث نتاج القرون التى شهدت النشاط العقلى للامة العربية الاسلامية قبل بدء العصر الحديث ، وهى قرون قد

تزيد أو تنقص بحسب التحديد الزمنى لعصور الازدهار ، وقد تتسع حتى تستوجب كل الانتاج الفكرى المخطوط قبل دخول الطباعة الى الوطن العربى وانتشارها ·

ومن الناحيتين اللغوية والمكانية يمكن أن يشمل التراث كل ما انتجه سكان الدولة الاسلامية فى أقصى اتساع لها ، وقد كانوا أجناسا ولغات وديانات متعددة · وهنا يمتزج البعد المكانى بالبعد اللغوى ، فبعض المسلمين ألف أو كتب بلغات أخرى غير العربية كالفارسية والأردية والتركية ، كما أن بعض النصارى واليهود من القاطنين فى بلاد الدولة الاسلامية كتبوا مؤلفاتهم بالعربية فى علوم مثل الطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات ، وخاصة فى بداية عصر النقل والترجمة حيث قام بهما فى أول الامر مسيحيون من سكان الدولة · وقد كانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للاسلام ، ولكنها كانت كذلك اللغة العلمية والادبية ، لغة التعبير والتدوين والكتابة بصرف النظر عن الاصول العرقية أو اللغوية أو الدينية لسكان الدولة الاسلامية ، فكتب بها المسلم والنصرانى وكتب بها العربى والفارسى والتركى وغيرهم · وظل الحال كذلك حتى ظهرت من جديد العصبيات القديمة لغوية كانت أو عرقية،وبدأت تغلب من جديد النزعات الاقليمية بعد أن كان سكان الدولة منصهرين فى بوتقة واحدة ، وهنا ظهرت مؤلفات بلغات اسلامية أخرى غير العربية ، وانتج فيها انتاج يعد موازيا للانتاج باللغة العربية ·

وان التراث العلمى للامة الاسلامية يمكن ولا شك أن يتضمن ما انتج بلغات أخرى غير العربية ولكن هل نكون على قدر كاف من الواقعية ، اذا تحدثنا عن جمع التراث الفكرى باللغة الاردية مثلا ، في حين أن التراث العربى الذى تضمنته مخطوطاتنا لا يزال مشتتا في انحاء العالم ، أظن أن الافضل أن نتحدث فى المرحلة الحاضرة عن المخطوطات العربية ، خاصة وان الانتاج الفكرى العربى هو التراث الاصيل فى الموضوعات العربية والاسلامية ، وهو الذى اعتمدت عليه اللغات الاسلامية الاخرى ، فهو المادة الاصلية وتراث اللغات الاخرى هو المادة الثانوية ·

ومما يثار عند الحديث عن ابعاد التراث العربى الثلاثية : الزمان

والمكان واللغة : الدراسات الحديثة فى الموضوعات القديمة ، سواء أكانت عربية أم اجنبية . فالدراسات العربية الحديثة ، وان كانت تنتمى مكانا ولغة الى نفس المكان الذى قطنه السلف ، والى نفس اللغة التى كتبوا بها . الا أن هذه الدراسات لا تدخل من حيث الزمان في التراث · كما أن هناك دراسات حديثة أعدها اجانب ، والمستشرقون منهم بصفة خاصة · وهذه لا تدخل فى التراث زمانا أو مكانا أو لغة . فهل نستبعد هذه وتلك ·

مما لا شك فيه أن الدراسات الحديثة في موضوعات التراث ، عربية واجنبية ، قد نشأت لخدمة الموضوعات العربية والاسلامية وانها اعتمدت عليها اعتمادا يكاد يكون كاملا ، ففهارس المخطوطات مثلا ، قد تكون أعدت في بلاد أجنبية وأعدها مستشرقون ، ولكن لاشك انها لخدمة التراث والمشتغلين به ، كما أن مادتها تنتمى الى التراث ·

وهكذا قل عن الخدمات الببليوجرافية المختلفة ، وقلما يخلوا فن من التوابع المكملة له · كما ان الدراسات الحديثة تعد مقدمات لاعمال التراث ومدخلا اليها · وهكذا يمكن ضم هذه الاعمال الى التراث بهذا الاعتبار وان لم تكن منه اصلا · على انها ليست هى المقصودة الأن بعمليات الحصر والجمع والتحقيق فالمقصود بهاالمخطوطات خاصة ، وانما يأتى دورها في مرحلة تالية ·

وعلى هذا فالافضل أن تقتصر في المرحلة الراهنة على تحديد مفهوم التراث بذلك الذى تضمه المخطوطات العربية ، وهذا هو المعنى الشائع عند المشتغلين به وهو المعنى الذى نقصده في دراستنا هذه ·

قيمة التراث في العصر الحاضر

عند مناقشة قضية التراث والحاجة الى بعثه واحيائه وخدمته يذهب البعض الى أن التراث من أعمال الماضى ، وأننا الان فى عصر التقدم ولا حاجة بنا الى ماتضمنه الكتب الصفراء من معلومات مضى عليها الزمن، وأن الاولى أن ننفق الوقت والجهد فى الموضوعات التى تعود على الوطن بالنفع وقد يستخدمون فى هذا عبارات قاسية عن التراث فيها ظلم صارخ له ·

وقد فات هؤلاء أمور وغابت عنهم اشياء ، اذ يفسرون التقدم تفسيرا ضيقا جدا ولا يلتفتون الى جملة عناصره ، ويرون النموذج المادى للتقدم هو وحده الجدير بالاتباع ، وحينئذ لا يجدون دورا للتراث . ولذلك فان المنحى الذى ننحوه في هذه الدراسة هو اننا نركز على جوانب موضوعية فى قيمة التراث ، ولا نقتصر على الجوانب الحماسية فقد استعملت كثيرا. ولابأس أن يتحمس الانسان لتراثه فهذا واجب ، ولكنه من الافضل دعم الحماسة بقيمة موضوعية حقيقية يراها الناس في التراث فيلمسون معها أن له دورا فى العصر الحاضر . وسوف نركز كلامنا هنا فى عدد من النقاط :

اولا : التراث وشخصية الامة

لكل أمة شخصية ذاتية تنفرد بها عن غيرها من الامم . وتعتمد هذه الشخصية على مقومات متعددة . وفى عصر الحضارة الاسلامية الزاهر كانت شخصية الامة الاسلامية واضحة كل الوضوح ، اذ تعتمد الشخصية على فكر هو ذلك الانبعاث الداخلى الذى اعطى للامة الاسلامية العمود الفقرى لشخصيتها وقد رفض المجتمع الاسلامى على مر العصور الافكار الدخيلة لانها غريبة عنه وتمسك باهداب فكرة المنبعث من الاسلام . والامثلة والشواهد على هذا كثيرة .

وقد صحب مالحق المسلمين من تأخر في العصر الحديث دعوات هدفها الاساسى طمس معالم الشخصية الاسلامية والتمكين للدعوات والاراء الدخيلة على بيئتنا الغريبة على فكرنا ، وربطوا في هذا بين التأخر المادى الذى عانت منه الامة الاسلامية فى العصر الحديث وبين التمسك بالماضى.

واختلط الامر على البعض منا فحاولوا أن يلتمسوا لهم نوعا من الانتماء الى هذا المذهب أو ذاك تقليدا وراء ماأتى به العصر الحديث من هذ الاراء والمذاهب . وفى نفس الوقت ظل التيار الفكرى الاسلامى قويا يرى أن تحقيق التقدم هو فى العودة الى نفس الاسباب التى حققت تقدم المسلمين فى عصرهم الزاهر .

وللفصل بين الفرقاء نقول ان الحضارة ذات جانبين : جانب معنوى

فكرى ، وجانب مادى · والجانب الاول تختلف فيه الامم لانه يتبع الحياة الفكرية للامة ، وهى كما ذكرت انبعاث داخلى لا يستمد من أى مصدر خارجى · اما الجانب المادى فهو قدر مشترك بين الامم تستطيع كل أمة أن تصل اليه اذا امتلكت اسبابه ·

والحضارات الاجنبية التى نشهدها الان جميعا كلها تركز على الجانب المادى من الحضارة ولا تعنى بالجانب المعنوى · ولو حاولت أمتنا أن تأخذ فقط بالجانب المادى فسوف تكون نسخة مشوهة أو ممسوخة من هذه الامة أو تلك ، وربما لن تلحق بها ابدا · ولكن الحضارة الاسلامية تعتمد على الجانبين معا ويتحقق فيها توازن دقيق بين الفكر والروح من جانب والمادة من جانب آخر ، فضلا عن ان هذا الجانب المادى هو نفسه منبثق من الدين الاسلامى الذى ينظ علاقة الانسان بخالقه ، وعلاقته بغيره من افراد المجتمع ويرسم للمجتمع الاسلامى المنهج الذى يسير عليه في كل الامور · فهو دين متكامل ينظم حياة الناس من جميع الوجوه · وهذا هو الذى يفرق بين المجتمع الاسلامى وغيره من المجتمعات وبين الفكر الاسلامى وغيره · والفكر الاسلامى هو الذى يحدد معالم الشخصية الاسلامية ·

والتراث هو الذى يشتمل على التراث الدينى ، الذى تتمثل فيه اكثر من أى شيء آخر شخصية الامة الاسلامية خالصة نقية بريئة من كل دخيل من الشرق أو الغرب ، فاذا كان التراث هو الذى سجل عوامل التقدم فى الماضى ورسم للامة الاسلامية شخصيتها ، فان دوره فى الحاضر له نفس الاهمية حتى تستريح الامة من عناء البحث عن دورها وعن شخصيتها ·

ولذلك فاذا كان المجددون فى العصر الحديث قد رأوا أن صلاح حال الامة الاسلامية هو فى العودة الى ما كان عليه السلف الصالح فيجب أن يرتبط بهذا أن نهتم باحياء تراث هؤلاء السلف وخدمته ، فهو أعز ما تملك الامة الاسلامية ·

ثانيا : التراث والقضايا المعاصرة

اذا كان التراث يلعب هذا الدور فى رسم معالم الشخصية الاسلامية

في الحاضر ، فان له دورا أخر هو امتداد لوصل ماضى الامة بحاضرها . فقد جدت على المسلمين أمور وعرضت لهم قضايا نتيجة اتصالهم بحضارة العصر الحديث . وقد تداخلت الامور والقضايا فى حياة المسلمين بحيث كان من الضرورى بحثها على ضوء تعاليم الاسلام . ومن أمثلة هذه القضايا البنوك ، التأمين ، عمل المرأة ، علاقات المسلمين بغيرهم فى السلم والحرب تنظيم الاسرة ، الخ . ولكى يطمئن المسلم على أن حياته تسير فى الاتجاه الصحيح فهو يريد معرفة رأى الدين فى هذه القضايا . وقد يكون بعض هذه القضايا من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بحث طويل ، ولكن هناك قضايا جدلية تحتاج الى بحث طويل . ولكى يتم بحثها فلا بد أن تكون المعلومات اللازمة متاحة وميسرة ومنظمة . وهذه المعلومات تستمد اساسا من تراثنا الفقهى . فمن الضرورى أن يكون هذا التراث مجموعا ومنظما وميسورا للباحثين .

وهناك جانب آخر لهذه القضية لعله أعم وأهم وهو قضية التشريع من أعمال الماضى . والتشريع هو الذى ينظم حياة المجتمع . ويختلف المجتمع الاسلامى عن غيره فى أن تشريعه سماوى لا وصفى . واذا كان من الواجب على الشعوب الاسلامية أن تجعل الشريعة الاسلامية مصدرها الوحيد لقوانينها الحديثة ، فيجب أن يلازم هذا نشر التراث الفقهى وفهرسته وتحليله بما ييسر الرجوع اليه ، خاصة وأن انتاج علماء السلف فى هذه الموضوعات يجب أن يكون الاساس لدراستنا الحالية .

ثالثا : التراث وقضية المنهج ، والدفاع عن الاسلام

بدأ الاوروبيون اهتمامهم بالعلوم العربية منذ وقت طويل منذ بدأ اتصالهم بالمسلمين في مراكزهم في أوروبا : الاندلس ، وصقيلة ، وفى المشرق أيام الحروب الصليبية . وقد جاروا فى تفوق المسلمين وبدأوا فى دراسة علومهم ، وعليها اعتمدت النهضة الاوروبية الحديثة . وقد كان من نتيجة هذا أن انشئت مراكز متعددة للدراسات العربية فى الجامعات الاوروبية . وقد درس هؤلاء كل ما يتعلق بالمسلمين ، واختلفت دوافعهم فى ذلك : فى البداية كانوا يريدون أن يتعلموا علوم المسلمين وفى بداية الاهتمام السياسى بالدول العربية درسوا جوانب الحياة المختلفة لكى يتمكنوا من التعامل مع المسلمين . ويعرف هذا بحركة الاستشراق . لقد

اهتم المستشرقون اهتماما كبيرا بالدراسات العربية والاسلامية وبذلوا فيها جهودا كبيرة ووجهوا الاهتمام الى المخطوطات العربية وكانوا اول من اهتم بفهرستها ووضع قواعد لتحقيق نصوصها ، واعمالهم فى هذا المجال كثيرة ولها تأثير كبير .

ولا يمكن القول بأن الاستشراق كان خيرا كله أو شرا كله ، فلا يمكن القول أن المستشرقين لم يخدموا هذه الدراسات . ولكن هل قاموا بعملهم هذا بدافع من حب الاسلام واهله . قد يكون بعضهم قام بدراسته من باب حب العلم أو الاعجاب بتراث المسلمين العلمى ، ولكن من المؤكد أيضا أن الكثيرين منهم كانوا يدرسون الاسلام وتراثه بغرض الدس عليه والطعن فيه ، ووصل الطعن الى شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وليس هذا غريبا ، فهم ليسوا مسلمين وبالتالى لا ينظرون الى الرسول نظرة التكريم والاجلال فليس غريبا بعد ذلك أن تمتد السنتهم اليه ، والى تراثه من السنة ، قياسا على تحريف الكتب المقدسة عندهم . وهذا هو الذى يفسر ما يحشرونه في كتاباتهم من طعن في الاسلام ، وهو طعن واهن ضعيف لا يقوى أمام المنهج السليم والدراسة العلمية .

وهنا نود أن نشير الى أمرين لهما خطرهما :

١ - أن التراث الاسلامى قد واجه فى الماضى مواقف كثيرة من هذا النوع مع أعدائه القدامى من نصارى ويهود ومجوس ، ومن اتباع فلسفة اليونان . وقد تصدى علماؤه لهؤلاء ودحضوا آراءهم ونزعاتهم . وهناك علم دفع مطاعن القرآن وعلم دفع مطاعن الحديث ، وعلم الكلام السنى . وهذه العلوم درست كل ما يوهم الاختلاف أو التناقض ووصلت الى التوفيق . كما أن علماء الكلام قد تصدوا لاصحاب الملل والنحل والمذاهب المنحرفة ودحضوا مذاهبهم .

وما نحتاجه في هذا الصدد هو التفتيش في التراث والاسترشاد بدفوع السلف ، ولا أقول الوقوف عندها ، ولكن لنبدأ من حيث بدأوا ثم نضيف اليه ما تتطلبه الاوضاع الراهنة من ادلة وبراهين جديدة .

٢ - يركز الاوروبيون فى دراساتهم على قضية المنهج . وهم

يروجون لارائهم باسم العلم والمنهج العلمى · وللاسف لقد وجدوا من بيننا أصحاب آذان صاغية وقلوب مفتوحة ممن تعلموا على ايديهم اما فى جامعاتهم أو عن طريق الاستفادة من دراساتهم ، خاصة واننا فى كثير من المجالات نفتقر الى الدراسات الحديثة فى هذه الموضوعات الامر الذى يترك الميدان خلوا الا من دراسات المستشرقين ومن ثم تكون دراساتهم هى الدراسات الوحيدة في بعض الموضوعات فيضطر الباحث الى دراستها ، ونادرا ما يفلت من تاثيرها ·

وقد ركز هؤلاء على التشكيك في تراث النبى صلى الله عليه وسلم من السنة ، وزعموا أن علماء الاصول قد ركزوا فقط على اشخاص الرواة ولم يتناولوا بالتمحيص نصوص الاحاديث ولم يعرضوها على العقل !!

وان رأيهم هذا فيه مجافاة للمنهج العلمى الصحيح واخفاق في تعرف مايصلح من منهج لدراسة الحديث النبوى الشريف · فهم يحاولون أن يطبقوا المنهج العقلى على علم نقلى وهذا خطأ منهجى محض في حين انهم يتشدقون بالمنهج العلمى · فليس كل المناهج صالحة للتطبيق على كل العلوم ، لا يجوز مثلا أن أطبق المنهج الرياضى ـ وهومفيد فى ذاته ـ على العلوم الاجتماعية وأن أخضع العلاقات الاجتماعية للقياسات الرياضية ، كما لا يمكن أن اطبق المنهج التجريبى ـ وهو أيضا مفيد فى سياقات اخرى ـ على الموسيقى وان اخضع المؤلفات الموسيقية للملاحظة والاستقراء ، الخ ···

لا بد اذن من تعرف المنهج الذى يصلح للتطبيق على علوم الدين · وتختلف هذه عن غيرها من العلوم فى انها علوم نقلية ، وهى تعتمد على النقل عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول · أما العلوم العقلية فهى التى تعتمد على العقل ويمكن أن تطبق عليها المناهج الاخرى . وللعقل أن ينظر كما يشاء ·

والاصل في العلوم الدينية الشرعية الكتاب والسنة · أما الكتاب العزيز فقد أنزله الله وتكفل بحفظه . اذ هو كلامه سبحانه وتعالى · وأما الحديث الشريف فهو كلام الرسول وافعاله وتقريراته وصفاته · ولكن أقواله وافعاله صادرة عن الوحى · والمنهج الاسلامى يقوم هنا على الاقتداء

بهذه الاقوال والافعال اذا ثبت أنها صدرت عنه · وهو الذى يلخصه موقف أبى بكر رضى الله عنه في قضية الاسراء والمعراج «ان كان قال فقد صدق» وكذلك كان ايمانه رضى الله عنه راسيا يوزن بايمان الامة يقوم على الاقتداء وليس على البحث فى فحوى الكلام أو الفعل · وعلى هذا يقوم البحث فى علم أصول الحديث فهو ينصب على الاشخاص الراوين للحديث ، فاذا صحت سلسلة الاسانيد فقد صح الحديث، واذا ضعفت ضعف الحديث· وقد أخفق المستشرقون فى تعرف هذا المنهج لانهم بعيدون عن روح الاسلام، بعيدون عن التصديق بكلام الرسول ، راغبون في الدس والطعن ·

فليس من شأننا اذا أن نحاول تلمس منهج آخر ، فالمنهج الذى طبقه المسلمون فى علم مصطلح الحديث منهج سليم ، وقد كان من قوته أن طبقته علوم اخرى كثيرة ·

رابعا : التراث واسهام العرب فى الحضارة الانسانية ·

ظهرت دراسات كثيرة حول تاريخ العلوم العربية والاسلامية · وقد كتب المستشرقون أغلب هذه الدراسات ، ولذلك فقد تلون تاريخ العلوم العربية والاسلامية بأراء المستشرقين ، ومرة أخرى في غياب الدراسات العربية الرصينة · ومع كثرة تلك الدراسات فاننا لا نستطيع حتى الان تقدير الدور الذى لعبته الحضارة الاسلامية فى الحضارة الانسانية على أساس موضوعى رصين ، وانما أقوال هنا وأقوال هناك ، لكننا لا نستطيع حتى الان أن نعرف اسهامهم الكامل والحقيقى ·

ولا يمكن أن نعرف ونقدر هذا الدور دون كتابة تاريخ العلوم العربية الاسلامية · وتحاول الدراسات التى قام بها المستشرقون أن تقلل من هذا الدور ، وأن تضعف هذا الاسهام حتى لا ينسبوا للمسلمين أى فضل فهم يرون أن الحضارة الاسلامية قد اقتصرت على دور الناقل الامين للحضارة اليونانية وتوصيلها الى حضارة العصر الحديث ، هى حضارة وسيطة ناقلة لا ابتكار فيها ولا جديد · وبناء على هذا ينسبون هذا الجديد الى الحضارة الحديثة ، فهم الذين ابتكروا المنهج العلمى ، وهم الذين وضعوا اسس كل العلوم ، الخ · هذا فى حين أن بعض المنصفين منهم يرون أن المسلمين هم

الذين وضعوا أساس المنهج العنمى الحديث ، وقد اثبت الدكتور على سامى النشار في كتابه : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام هذا بأدلة تحليلية تركيبية ، كما اثبت أن العقل العربى عقل استقرائى تجريبى ، وأن العقل اليونانى عقل قياسى نظرى استدلالى ، وأن المنهج الاستقرائى يتمثل أكثر ما يتمثل فى علم أصول الفقه ، الذى يختلف منطقه الاستقرائى تماما عن االمنطقى الارسطى القياسى · ومع ذلك ينسب الغربيون المنهج التجريبىالى فرنسيس بيكون ، كما ينسبون علم الاجتماع الى أوجست كونت مع ان واضعه ومؤسسه هو ابن خلدون وهكذا وهكذا ·

ومن القضايا التى أثاروها فى هذا الصدد وتابعهم عليها كالعادة علماء عرب ـ أن العلوم العربية وقفت عند القرن الرابع الهجرى،فقد بلغت في ذلك القرن قمة نضجها ، أما بعده فلا شىء سوى الشرح والتعليق والتهذيب والتحشية ، دون اضافة حقيقية الى ما سبق ·

وقد ذهب الى هذا الرأى الكثيرون ممن أرخوا للبحاة العقلية عند المسلمين من عرب ومستشرقين وربما كان أول من زعم هذا المستشرق النمسوى آدم قز فى كتابه الذى ترجمه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة في الاسلام · والعنوان نفسه عنوان نقدى فهو يعتبر أن القرن الرابع قمة النهضة فى الاسلام · وربما تأثر بهذا الرأى وسجله بصورة أكثر وضوحا احمد أمين فى سلسلته عن الحياة العقلية عند المسلمين : فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام · وهذا الرأى ورد فى ذيل كتابه ظهر الاسلام ·

ونحن لا ننكر قيمة هذه السلسلة فى كشف الجوانب عن الحياة العقلية عند المسلمين ولم شتات هذا الموضوع · ولكن ليت احمد أمين وقف عند هذا الحد ولم يتطرق الى الكتابة عن ما بعد القرن الرابع ، ليته ترك الباب مفتوحا لمن يأتى بعده بعد أن ادى هو دورا جليلا فى دراسة القرون الاربعة الاولى · لقد جاءت كتابته ـ ولا أقول دراسته ـ عن القرون التالية فى ملحق فى المجلد الرابع من ظهر الاسلام فلم يؤث

الموضوع حقه ، اذ درس القرون الاربعة الاولى فى ثلاثة كتب تضم ثمانية مجلدات وتناول القرون اللاحقة فى ذيل أو ملحق · هذا فضلا عن أن تسميته لكتابه تسمية نقدية : فالفجر هو النشأة ، والضحى هو السطوع ، والظهر هو القمة التى تبلغها الشمس ، وبعد ذلك الانحدار فالغروب ·

أى أن ما بعد القرن الرابع انحدار وأفول ، وكأنه حكم على القرون التالية حكما مسبقا قاسيا دون دراسة أو تمحيص ·

أقول أن احمد امين · قد يكون هذا متأثرا بمتز وغيره ، ولكنه كان حسن النية فيما كتب ، ولكن المستشرقين كان لهم نية اخرى ·

فبعض هؤلاء يرون أن الحضارة الاسلامية قد وقفت عند القرن الرابع ويرجعون السبب فى ذلك الى أن انتصار المذهب الاشعرى كان بداية للجمود عند المسلمين · ونحن نعرف أن انتصار المذهب الاشعرى السنى على المعتزلة كان على يدى أبى الحسن الاشعرى على رأس المائة الثالثة · ثم انتشر بعد ذلك وساد فى القرون التالية ·

ويرى هؤلاء المستشرقون ان نجاح المذهب الاشعرى كان السبب فى تجميد الفكر الدينى عند المسلمين ، فهم يعتبرون المعتزلة أصحاب حرية الفكر فى الاسلام ، ورغم أنهم لم يستطيعوا الدفاع عنهم حينما تكلموا بخصومهم أيام الخليفة المأمون حينما وصلوا الى السلطة · فقد حملوا خصومهم فى الرأى بالقوة والتعذيب بل والقتل أحيانا على القول بخلق القرآن ، وهى الفتنة المعروفة التى لم يسلم منها احد من كبار الائمة ومنهم الامام احمد بن حنبل امام أهل السنة ·

وفى هذا يقول الدومييلى في كتابه : العلم عند العرب وأثره في تقدم العلم العالمى : (١) : « وينبغى الا يغيب عن نظرنا أن الدين فى العالم الاسلامى يسيطر سيطرة كاملة على جميع الحياة المدنية والفكرية ، وانه في الاذمنة والأمكنة التى لا يزال مذهب أهل السنة المحافظ ميسيطرا

---

(١) ص ٩١ ·

فيها يجب أن يكون كل نمو للثقافة ، وكل اتجاه لانبعاث افكار جديدة أو مجددة ، خاضعا لنصوص القرآن والاحاديث الصحيحة النسبة الى الرسول . واذا ، فلما كان لاهل السنة سلطان مسيطر ، حصل جمود شديد فى جميع الحياة الثقافية ، كما حصل تقهقر الى روح معادية للعلم وتقوية لكل ما ينكر تقدم الانسان وحرية الارادة » .

وبعد أن يحكى ميلى كيف نجح المذهب الاشعرى ضد المعتزلة يقرر أن « أبا الحسن الاشعرى هو مؤسس علم الكلام السنى فى الاسلام . وقد كان تأثيره بعيد المدى فى هذه الناحية ، ولكنه ـ بكل تأكيد ـ لم يؤثر اثرا مساعدا على نمو العلم » .

ان الهدف البعيد الذى يرمى المستشرقون الى الوصول اليه هو أن انتصار العقيدة الدينية عاق تقدم العلم ، ومعنى ذلك أن الاسلام يعوق التقدم العلمى ، وهم يريدون لهذا الزعم أن يسود وأن يسيطر على تفكير المسلمين ، وذلك حتى لا يحاولوا ـ فى سعيهم نحو التقدم ـ العودة الى ما كان عليه السلف .

ولا شك أن رأى المستشرقين مجاف للحقيقة والواقع ، فالدين الاسلامى يحض على العلم والتعليم والتعلم ، ويرفع من قدر العلماء حتى جعلهم ورثة الانبياء . ولا شك أن تعاليم الاسلام كانت الدافع وراءالنهضة العلمية التى شهدها العالم الاسلامى . فالعمل العلمى نوع من الجهاد ـ الجهاد الاكبر ـ ولذلك لم يدخر العلماء المسلمون جهدا ولم يعرفوا دعة . والامثلة على كفاح العلماء المسلمين أكثر من أن تحصى وأكبر من أن تستحصى ، وجهودهم وما وصلوا اليه يعد بالقياس الى الادوات التى يعملون بها اكبر من جهد أى عالم فى العصر الحديث بالقياس الى أدواتنا.

أما عن الزعم بأن العلوم العربية والاسلامية قد توقفت بعد القرن الرابع فهو بعيد عن الحقيقة وذلك لاسباب منها :

١ ـ أن حالة التراث لا تسمح باصدار هذا الحكم ، اذ يطلب التأريخ الكامل للعلوم دراسة كل قطع التراث . وهذه الدراسة غير ممكنة فى ضوء الظروف الحالية للتراث . ولا زالت هناك فجوات كثيرة فى معلوماتنا عن

نشأة كثير من العلوم وتطورها بسبب غياب قطع أصلية من التراث ·ويشكو الكثيرون من العرب والمستشرقين من عدم تمكنهم من استيفاء دراساتهم بسبب نقص المصادر الاصلية فى الموضوعات · هذا مع أن نقص مصدر أصلى واحد أو وجوده قد يغير آراءنا عن علم من العلوم ، وقد يؤدى الى اعادة كتابة تاريخه ·

ومن أمثلة ذلك تلك القصة المشهورة التى حكيت عن تفسير الطبرى، فقد كان هذا الكتاب يعد مفقودا الى قرب نهاية القرن التاسع عشر ، مع أن العلماء من المسلمين والغربيين كانوا مجمعين على أهميته · وفي سنة ١٨٦٠ كتب المستشرق الالمانى نولدكه صادرا فى حكمه عن قطع وجدها من الكتاب ونصوص نقلتها منه كتب أخرى لو حصلنا على هذا الكتاب لاستطعنا أن نستغنى عن كل كتب التفسير المتأخرة عنه ، ولكنه يبدوا للاسف مفقودا·

ولهذا كتب المستشرق المجرى جولد تسيهر الذى قص الحكاية السابقة « ولهذا كان مفاجأة سارة للعالم فى المشرق والمغرب أن صدرت طبعة كاملة فى القاهرة من هذا الكتاب الضخم ··· معتمدة على نسخة كاملة مخطوطة وجدت فى مكتبة امير حائل » ·

هذا كتاب واحد فى علم واحد ، فكيف يمكن لباحث ما أن يعطى أحكاما عن تاريخ العلوم العربية جميعا وتراثنا لازالت اجزاء كثيرة منه لا يعرف احد عنها شيئا·

٢ ـ يمكن أن نقول أن العلوم العربية لم تتوقف بعد القرن الرابع· قد يقال أن العلوم الدينية قد شهدت نوعا من الثبات النسبى وذلك لا يرجع الى تأخر أو جمود ، ولكن يرجع الى أنها علوم نقلية ، ومن المعلوم أن العلوم النقلية ثابتة استاتية بسبب اعتمادها على النقل ومن ثم فان تطور المعرفة فيها مرتبط باستحداث مسائل تتطلب الاجتهاد · وقد ظل الاجتهاد قويا حتى القرن الرابع لان العلماء وجدوا امامهم مسائل تتطلب قدح الفكر فلما كان القرن الرابع استنفذت كل المسائل المطروحة للبحث ·

والدليل على هذا اختلاف فقه أهل العراق ومصر عن فقه أهل المدينة،

وذلك لتشابه بيئة المدينة زمن مالك امام أهل المدينة مع بيئة عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عصر الوحى · ولذلك كان مالك يوسع دائرة الحديث ويضيق دائرة القياس ، ولذلك أخذ بمبدأ اجماع اهل المدينة ، اذ لو اجمعوا على ترك شيء أو فعله فهم قريبون من زمن الرسول ، ومن المتعزر أن يجمعوا على شيء لم يكن موجودا في عصر الرسول ·

أما أهل العراق ومصر فان بيئتهم زراعية تفرض أو تعرض مسائل جديدة وفروعها تتطلب البت فيها ولذلك وسع العراقيون دائرة الاجتهاد · أما مذهب أهل مصر متمثلا فى مذهب الامام الشافعى فقد استفاد من مذهب مالك واستفاد من مذهب اهل العراق ، اذ تتلمذ الشافعى على مالك، ثم على محمد بن الحسن الشيبانى فطعم مذهبه بآراء أهل العراق لتشابه بيئة العراق مع البيئة المصرية التى دون فيها مذهب الشافعى ·

وفى القرنين الثالث والرابع أخذ علماء الفقه يخدمون المذاهب المختلفة ويستغرقون الجهد فى بحث مسائلها ، حتى استنفدوها ، بل لقد افترضوا مسائل واجابوا عنها · وكانت البيئة فى القرون التالية بعد القرن الرابع ثابتة نسبيا ومتشابهة مع بيئة القرن الرابع وما قبله فلم تستجد مسائل تتطلب اعمال الفكر ، ولذلك بدا للمؤرخ غير المتبصر بطبيعة العلوم أن التطور قد توقف وان الفكر قد جمد · والحقيقة أن البيئة نفسها هى التى ثبتت ولم تعد تطرح جديدا يحتاج الى بحث · فلما جاء العصر الحديث واخذ المسلمون يتصلون بالحضارة الاوربية استجدت قضايا من النوع الذى أشرنا اليه عند الحديث عن القضايا المعاصرة ، فاحتاجت الى بحثها والبت فيها ، ولذلك شهد الفقه نهضة جديدة كما ذكر مؤرخوه ·

٣ ـ ان العلوم الاخرى غير الشرعية مثل الطب والتاريخ لم تشهد هذا الثبات النسبى ، بل استمرت فى تقدمها وتطورها ، وذلك لانها لا تعتمد على النقل كما تعتمد العلوم الشرعية ، ولذلك استمرت فى النمو · فقد كانت القرون الثلاثة : السابع والثامن والتاسع في مصر العصر الذهبى للتاريخ والمؤرخين وشهدت أعاظم المؤرخين المسلمين · وقد شهد القرن الثامن مثلا شخصية فذة كابن خلدون · وشهد القرن السابع ابن النفيس

الطبيب الذى اكتشف الدورة الدموية (مات ٦٩٦) . وفى الجغرافيا نجد القزوينى (مات ٦٨٢ هـ) . وهناك القلقشندى وكتابه صبح الاعشى (مات ٨٢١ هـ) والدميرى (مات ٨٠٨ هـ) وحياة الحيوان الكبرى .

٤ ـ ليس معنى هذا أن العلوم الشرعية قد خلت من العلماء الكبار، فهناك الغزالى (مات ٥٠٥ هـ) وفخر الدين الرازى مات (٦٠٦ هـ) وابن تيمية (مات) وتلميذه ابن القيم (مات) وابن‌حجر العسقلانى (مات ٨٥٢ هـ) والسخاوى (مات ٩٠٢ هـ) والسيوطى (مات ٩١١ هـ) .

وهذه الامثلة جميعا هى فى الفترة التى قيل أن العلم فيها قد توقف وهى أمثلة قليلة وهناك الكثير . وهذا يدل على أن من التسرع اصدار حكم بهذه الخطورة قبل دراسة قطع التراث ، وهذه غير ممكنة الا بعد حصره وجمعه ونشره .

واقع المخطوطات العربية :

انتجت المخطوطات العربية فى بلاد الدولة الاسلامية . وقد تعرضت خلال رحلتها الطويلة منذ انتاجها حتى الوقت الحاضر لظروف صعبة من احراق الى اغراق الى نهب وسلب الى نقل الى مكتبات أجنبية . والخلاصة أن الكثير منها قد ضاع ولم يصل الينا ، وان الكثير منها أيضا قد نقل الى مكتبات أوربية واجنبية فى الشرق أو الغرب على السواء بحيث يمكن القول أن المخطوطات العربية توجد فى قارات العالم الست وفى معظم المكتبات الكبرى فى العالم ، كما توجد فى العالم الاسلامى فى أنواع متعددة من المكتبات وعند الافراد .

ويقتضينا الانصاف أن نقول أن المخطوطات العربية قد حظيت بقدر كبير من الاهتمام سواء من حيث التصوير او النشر . ولكن من الحق أن نقرر كذلك أن الجهود التى بذلت لم تصل الى ما نريده لتراثنا او الى شىء قريب منه ، فلا زالت المسافة بعيدة جدا بين واقع التراث وما نريده له . ولكى يتسنى لنا رسم معالم خدمته لا بد أن نعرف حالة . ولذلك فسوف نحاول تلخيص واقع المخطوطات العربية على النحو الاتى :

أولا : نظرا لتشتت المخطوطات العربية فى مكتبات العالم وعند الافراد ، فقد كان من الضرورى أن تتجه الجهود نحو جميع هذه المخطوطات ومما لاشك فيه أن المكتبات التى تقتنيها لا ترضى بالتخلى عنها ، مع العلم أنها تراثنا نحن · ولذلك فقد انصبت الجهود التى بذلت أساسا لجمع التراث على التصوير · وكان التصوير احد الانشطة الرئيسية التى انشىء من اجلها معهد المخطوطات العربية التابع لادارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم · يلى ذلك فهرسة المخطوطات التى يتم تصويرها·

وقد أنشىء المعهد منذ ما يزيد على ثلاثين عاما ، وتمكن من تصوير ما يقرب من ١٨ ألفا من المخطوطات · ورغم أن هذه حصيلة طيبة ، اذ يقف المعهد فى الميدان وحده تقريبا ، الا أن هذا العدد لا يذكر بالمقارنة مع عدد المخطوطات العربية فى العالم وهو يقارب المليونين · ولو استمر المعهد على هذا المعدل فانه يحتاج لاتمام العمل كله الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة · هذا الى أن المعهد قد قام بتصوير جزء لا بأس به من هذه المخطوطات من مكتبات فى الدول العربية ، وكان الاولى أن ينصب الاهتمام على ما يوجد فى مكتبات أجنبية · كما أن ما فى حوزة الافراد .لم تصل اليه يد بعد ·

ثانيا من حيث الحصر ليس هناك حتى الان سجلات كاملة أو شبه كاملة عن المخطوطات العربية · وتحاول المكتبات التى تمتلك جانبا منها أن تعد لها فهارس ، كما حاول ذلك كثيرون من العلماء بينهم عرب ومستشرقون · ولكن هذه الاعمال لازالت بعيدة جدا عن الكمال ، بل أننا لا نعرف حتى الان بصورة كاملة ما هى فهارس المخطوطات التى اصدرتها المكتبات ، اذ أن الكثير منها عبارة عن نسخ خاصة مخطوطة تستعمل داخل المكتبات أما عن ما عند الافراد فلم يشلمه أى نوع من انواع الحصر المتقن·

والنتيجة لهذا أننا لا نعرف ما مخطوطاتنا واين توجد · هذا فضلا عن أن الفهرسة تتم فى كثير من الاحيان دون قواعد مقننة الامر الذى يجعل توثيق المخطوط غير كامل ·

ثالثا : ليست هناك خطة شاملة لنشر المخطوطات وتحقيقها · ويمكن

ان نلاحظ في هذا الصدد أن النشر يجرى وراء كتب بعينها بقصد الربح المادى حتى ولو كانت قد طبعت من قبل مرة او اكثر ، الامر الذى يدل على ان رسالة النشر ليست في ذهن القائمين بالعمل ·

وان غياب خطة للنشر يؤدى كذلك الى التكرار · كما ان النشرات التى تصدر بتفاوت في جودتها ، فالبعض يحقق ويدقق الى أبعد الحدود والبعض يكتفون بدفع المخطوط الى المطبعة دون اى جهد من جانبهم · ولهذا فلا يمكن الاعتماد على كثير من هذه النشرات من الوجهة العلمية · هذا فضلا عن أن ماتم نشره حتى الان قليل بالقياس الى عدد المخطوطات ، والاستمرار على هذا النمط يؤخر التعريف بتر اثنا واجراء الدراسات عليه ·

رابعا : هناك جانب لم نعطيه الاهتمام الكافي حتى الان، وهو تكشيف وتحليل النصوص فالملاحظ أن كثيرا من اعمال التراث تتسم بسمتين او بواحدة منها ·

١ـ انها تضم كتلا كبيرة من المعلومات وتشمل على جزئيات لا حصر لها والبحث الحديث لا يحتاج فقط الى معرفة ما هى عناوين الكتب والمقالات والرسائل ، التى تتنــاول موضوعات معينة ، ولكن يحتاج الى ما نسميه جزئيات المعلومات فكيف الوصول الى هذه الجزئيات فى كتاب يضم الاف الصفحات · وقد يكون البحث عن جزئية واحدة ، فهل يقرأ باحث ما كتابا يضم ١٠ مجلدات مثلا للوصول الى جزئية صغيرة ·

لقد مكثت ليلة كاملة أبحث عن معنى لفظ واحد في كتاب او اكثر ولم أهتد اليه مع تأكدى من وجوده في الكتاب ، لان محتويات الكتاب لم تحلل أو تبرر بالشكل الذى يوصل الى مضامينه ·

٢ ـ أن الكثير منها يتسم بالموسومية والاستطراد · فالكثير من الكتب التى حددها مؤلفوها موضوعــات وعنونوها بعناوين معينة · لا تقتصر على الموضوعات التى تدل عليها عناوينها ، وانما يستطرد أصحابها الى معلومات كثيرة بحيث تصبح في النهاية اعمالا موسوعية ، مثال ذلك : كتاب

الحيوان للجاحظ ، عجائب المخلوقات للقزويني ، نهاية الارب للنويرى ، عيون الاخار لابن قتيته ، والمخطط للمقريزى ، وحياة الحيوان للدميرى · بل ان الكثير من كتب التراجم والتاريخ والادب والجغرافيا والرحلات وتواريخ البلدان يصدق عليه صفة الموسوعية ، بل لقد انجر بعض المعاجم اللغوية الى استطرادات موسوعية ·

ويحتاج الامر في الحالتين الى ابراز المصطلحات الدالة في هذه الكتب وترتيبها ترتيبا مفيدا ييسر للباحث الوصول الى كل الاماكن التى عولج فيها اللفظ الذى يريده بدلا من قراءة الكتاب كله فهو جهد لا يتناسب مع البحث عن جزئية صغيرة من المعلومات · واذا كانت كتب التراث خزائن للمعرفة فان التكشيف والتحليل يعطينا مفاتيح الوصول الى هذه الكنوز ، وعملية التحليل تختلف عن الفهارس التقليدية التى يعدها المحققون والناشرون الان لبعض كتب التراث ·

خامسا : يفتقر الانتاج الفكرى العربى – والمخطوطات جانب منه – الى التنظيم الموضوعى الفعال الذى يعطى للباحث وبسرعة المواد التى تعالج موضوعه من كتب ومقالات وأبحاث · وقد قام البعض بجهود لتوفير هذا المدخل الموضوعى عن طريق تبنى أنظمة أجنبية للتصنيف · هذه الانظمة لا تراعى حاجات التراث الفكرى للامة الاسلامية لانها اعدت لثقافات أجنبية عنا ·

وقد كان الرد العملى على هذا هو بذل الجهود في محاولة جادة لتوفير نظام عربى للتصنيف صالح لتنظيم المعرفة ونابع من حاجات المكتبات العربية وقائم على الفكر الاسلامى في مجال تنظيم المعرفة · وقد عالجنا قضية تنظيم المعرفة عند المسلمين في مقال سابق في هذه المجلة · ★

★ عدد يناير ١٩٧٨ م صفر ١٣٩٨ هـ · وقد اوصى المؤتمر الثانى للاعداد الببليوجرافي للكتاب العربى الذى عقد في شهر ديسمبر ١٩٧٨ على تبنى الجهود التى يبذلها كاتب المقال الحالى في مجال الخطة العربية للتصنيف وأوصى باستكمالها من قبل الاقطار العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ·

أى أن تنظيم المخطوطات جزء من قضية عامة هى تنظيم الانتاج الفكرى العربى كله ، وهى جهود لم تصل بعد الى مداها ٠

سادسا : من حيث الدراسة العلمية لاتحظى قضايا المخطوط وجوانبه بالدراسات اللازمة ٠ هناك قواعد تحقيق النصوص ، وهناك مادة المخطوط ، وهناك اخبار المخطوطات وما يتم من جهود في جميع المجالات المتعلقة بها على مستوى العالم ، وهناك المؤتمرات العلمية ، الخ ٠

وأخشى ما اخشاه هو ان ينقرض جيل المشتغلين بالتراث حاليا ولا يجد من يحل محله ٠ حقيقة هناك جهود في هذا الصدد من قبل معهد المخطوطات ومن قبل مركز تحقيق التراث في مصر ولكنها غير كافية لتكوين جيل كفء من المحققين ، كما ان العمل في مجال المخطوطات لا يثير طموح الشباب الذين يتجهون الى موضوعات ومجالات أسهل واكثر تحقيقا للشهرة وللكسب المادى ٠

خطة شاملة للتراث

أرجوا أن اكون قد نجحت خلال الصفحات السابقة في ابراز أهمية التراث وفي توضيح أن الجهود التى بذلت وتبذل في سبيله لا توصلنا الى المقصود ٠ فاذا كنت قد نجحت في هذا واذا كناقد اقتنعنا بأهمية التراث وضرورة العمل على خدمته ، ـ فان السبيل الى ذلك وضع خطة شاملة له ٠ وان هذه الخطة تتطلب تفاصيل كثيرة وصفحات اكثر مما يسمح به الحيز خاصة وقد مال البحث الى الطول ٠

لذلك اكتفى هنا بعرض ملامح هذه الخطة وأبرز قسماتها ، واهم الخطوات التى يمكن اتخاذها فى هذا الصدد ٠

مركز اقليمى ومراكز وطنية للتراث :

ان الخطوة الاولى فى سبيل العمل على خدمة تراثنا هو انشاء التنظيم الذى يمكن أن يعهد اليه بمهام التنفيذ ٠ ان العلم والتعليم والبحث العلمى أصبحت كلها الان من مسئوليات الدولة وخاصة فى المجتمعات النامية التى

تسعى حثيثا نحو التقدم ، وما لم تسرع الدول النامية الخطى وتكسر حواجز الزمن فسوف تسبقها غيرها من الدول · ولذلك فلا يمكن أن تسير الدول النامية بالمراحل التدريجية للتطور بل من الضرورى النمو بسرعة أكبر · هذا معناه أن المشروعات العلمية الكبيرة تحتاج الى أن تدفعها الدولة دفعات قوية وأن تعهد بها الى تنظيمات وهيئات تدعمها ماليا وبشريا ، لان الاعتماد على الجهود والمبادرات الفردية فى هذا الخصوص لا يمكن أن يؤدى الى تحقيق الاهداف المرجوة ·

ومما لاشك فيه أن التراث من المشروعات العلمية الهامة ، ولا يمكن أن تكون مسئولية هيئة أو هيئات قليلة في بلد واحد من البلدان العربية ، بل هى مسئولية أصحاب هذا التراث جميعا ، هى مسئولية كل الدول العربية وكل الهيئات والعلماء فيه · وهذا لا يقلل مطلقا من مسئولية كل دولة من الدول العربية أو الهيئات فيها ، بل أن المسئولية فى الحقيقة هى على مستويين :

مستوى كل دولة بما فيها من هيئات علمية ·

مستوى الوطن العربى كله ·

وان المسئولية الاولى تتكامل مع المسئولية الثانية فى اطار خطة واحدة متكاملة تحدد لكل بلد مسئوليته ونصيبه فى هذا العمل الضخم · ولكى يكون كلامنا أكثر تحديدا نقول أن الوطن العربى كله ينبغى أن يشترك في احياء التراث وخدمته، وان المهام والاعمال التى سنرسم اطارها العام تحتاج الى انشاء :

المركز الاقليمى للتراث العربى

مراكز وطنية في كل دولة من الدول

خطوات العمل

أولا : المسح الشامل

نقصد بالمسح الشامل خطوة تمهيدية ولكنها فى غاية الاهمية الغرض منها القيام بالتعرف على أماكن وجود المخطوطات . وتتضمن هذه الخطوة ارسال بعثات متكاملة من المتخصصين للقيام بمسح شامل لكل مظان وجود المخطوطات العربية فى أنحاء العالم سواء فى المكتبات أو عند الافراد فى الدول العربية أو الاسلامية أو الاجنبية . ومن الضرورى الاعداد الجيد لهذه البعثات وتزويد أفرادها بالمعلومات اللازمة عن البلاد التى يزورونها عن طريق الدراسة لما قد تكون أصدرته هذه البلاد أو صدر عنها من أدلة علمية عن المكتبات ومراكز البحث العلمى وخاصة مراكز التراث أو معاهد الدراسات العربية ، والافراد العلميين .

وتركز البعثات على الجوانب الآتية : ـ

١ ـ زيارة المكتبات لمعرفة عدد المخطوطات وحالتها وهل أعدت لها فهارس أم لا ، ومدى امكانية الاعتماد على تلك الفهارس وهل الفهارس مطبوعة أم خطية وكيفية الحصول عليها ، وقيمة المخطوطات نفسها وهل تضم مخطوطات ثمينة بحيث تدخل فى الاعتبار عند تحديد أولويات الحصر ثم الجمع على ما سيأتى .

٢ ـ تحديد من هم العلماء الذين يهتمون بالدراسات الاسلامية والعربية فى البلد الذى يزار ، والذين يمكن الاعتماد عليهم فى التعاون فى مجال فهرسة المخطوطات أو غيرها من الجوانب المطلوبة فيما بعد .

٣ ـ محاولة التعرف على الافراد الذين يقتنون المخطوطات فى تلك البلاد ، ودراسة امكان الحصول على مخطوطاتهم أو بعضها عن طريق الشراء أو التصوير وتكاليف كل من العمليتين .

٤ ـ التعرف على مراكز الدراسات الاسلامية والعربية فى تلك البلاد ومعاهد المخطوطات بها .

٥ ـ التعرف على الناشرين الذين يهتمون بنشر التراث سواء أكانوا هيئات أم ناشرين تجاريين.

وفى نهاية المرحلة السابقة سيكون الناتج اعداد أدلة تتضمن المعلومات النوعية السابقة بحيث يُمكن الاعتماد عليها فى المراحل التالية ، فيكون هناك دليل بالمكتبات وفهارسها ، دليل بالافراد العلماء ، دليل بالاشخاص الذين يمتلكون مخطوطات ، دليل بمراكز ومعاهد الدراسات الاسلامية والعربية ومعاهد المخطوطات ، ودليل بالناشرين من الهيئات أو الافراد .

ثانيا : تفريغ الفهارس

تم فى الخطوة السابقة تحديد المكتبات التى تقتنى فهارس واعداد دليل بهذه الفهارس . بعد هذا لا بد من الحصول على تلك الفهارس أما بالشراء ان كانت مطبوعة أو بالتصوير ان كانت خطية أو مطبوعة طبعة خاصة .

وقد اصبحت الفهارس فى حوزتنا لا بد من تفريغها على بطاقات موحدة حتى تكون لدينا نسخة أصلية من سجل المخطوطات ـ ولا أقول فهرس المخطوطات . هذا السجل سوف يكون أساسا للعملية أو الخطوة التالية ، وهى الحصر . أما الفهرسة فتتم بعد الحصول على المخطوطات أو نسخة مصورة منه حتى تكون الفهرسة دقيقة وممثلة .

ثالثا : الحصر

تعد بطاقات حصر تتضمن المعلومات الاساسية التى لا غنى عنها من المخطوط . ومن دراسة الادلة السابقة التى توصلنا اليها فى الخطوة الاولى يمكن تحديد المكتبات والافراد الذين توجه اليهم هذه البطاقات . وتكون المعلومات المطلوبة واضحة ولا تحتمل اللبس أو التعدد بحيث تملا البطاقات بصورة آلية . وحتى لا يحدث تكرار بين المكتبات التى تقتنى فهارس فرغت فى السجل أن المطلوب فى بطاقات الحصر هو المخطوطات التى تدخل فى الفهارس .

وحينما يشرع فى التوجه بالبطاقات الى بلد من البلاد يكون من

مهام البعثة المرور على المكتبات لشرح المطلوب · ويمكن لافراد بعثة الحصر القيام بالعمل أو تكليف المكتبة المعنية به ثم المرور عليها مرة ثانية وبعد فترة معقولة للحصول على البطاقات التى تكون انجزت ·

رابعا : الجمع

المفروض أن تنتهى الخطوة السابقة الى اعداد سجل حصر يشمل على المخطوطات العربية فى كل مكان · هذا السجل سوف يخضع لدراسة متأنية ودقيقة من جانب العلماء لوضع خطة لعملية الجمع · وبديهى أن الجمع عملية طويلة المدى تحتاج الى وقت والى مال وأفراد ــ أى الى امكانات كبيرة من جميع الوجوه · وبديهى أيضا أن الخطة توضع على اساس المتاح من هذه الامكانات ، بحيث يمكن كل سنة الحصول على عدد من المخطوطات أو صورها ·

وتلاحظ دوائر المخطوطات ثلاث دوائر هى نفسها دوائر وجود المخطوطات :

- دائرة الدول الاسلامية ·
- دائرة الدول العربية ·
- دائرة الدول الاجنبية ·

فالدول العربية لا زالت تقتنى مجموعات هامة جدا من المخطوطات ، وهى موجودة فى المكتبات ولدى الافراد · ويتطلب الامر اصدار تشريع لجمع المخطوطات سواء تلك التى عند المكتبات أو الافراد · وينص هذا التشريع على تسليم المكتبات والافراد لما لديهم من مخطوطات الى المركز الوطنى للتراث والذى يكون قد انشىء فى البلد ·

ويتولى المركز الوطنى حين الحصول على المخطوط فهرسته وتصويره وارسال نسخة الى « المركز الاقليمى » حتى يكون الاخير نسخة كاملة من التراث جميعا ·

أما الدول الاسلامية فهى تضم كذلك مجموعات هامة من المخطوطات مثل تركيا وايران وباكستان · وهذه لن تقبل بطبيعة الحال التخلى عما لديها · وهنا لا بد من عقد اتفاقيات تعاون ثقافي ينص فيها على التعاون فى تصوير المخطوطات · ويمكن أن يكون ذلك من خلال التبادل فهذا أنفع للطرفين وأقرب الى الاستجابة حتى تكون المنفعة متبادلة ·

ونفس الشيء يمكن أن يتم مع الدول الاجنبية ·

ويقوم بالتصوير أيضا بعثات يتم الاعداد لها اعدادا جيدا ·

خامسا : التنظيم

يتضمن التنظيم عناصر هى :

الفهرسة الوصفية : وتشمل الجوانب الوصفية المادية للمخطوط من مؤلف وعنوان وحالة مادية ، الخ · أى توثيق المخطوط ·

التصنيف : ويتضمن تحديد موضوع المخطوط حتى يتسنى معرفة ما لدينا من مخطوطات فى موضوع معين ·

رؤوس الموضوعات : وتتضمن ترتيبا للموضوعات فى صورة الفبائية تيسر الوصول الى المخطوطات فى موضوع مخصص ·

وعناصر التنظيم هذه هى نفسها عناصر التنظيم بالنسبة للمطبوع، فيما عدا أن الفهرسة للمطبوع تختلف عن فهرسة المخطوط ، اذ تتضمن الاخيرة شمولا فى الوصف لا يحدث عند فهرسة المطبوع · وهذا يتطلب وضع قواعد موحدة لفهرسة المخطوط ·

أما العنصران التاليان فهما لا يختلفان ، لان التصنيف ورؤوس الموضوعات يهتمان بالمضمون ، وهو نفسه فى المطبوع والمخطوط · وهذان العنصران جزء من مشكلة توفير المدخل الموضوعى التى اشرنا اليها للتراث الفكرى كله وهى تتضمن توفير خطة عربية للتصنيف وقائمة عربية لرؤوس الموضوعات ·

ويتم التنظيم بطبيعة الحال ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ للمخطوطات وللنسخ المصورة منها فقط . أما تلك التى يتسلمها المركز فتوجد لهـــا بطاقة فى سجل الحصر .

سادسا : النشر والتحقيق والخدمة

بعد توفر حصيلة من المخطوطات يمكن أن تبدأ عملية النشر . ولا شك أن اللجنة التى ستضع خطة الجمع ستراعى متطلبات النشر بحيث تجمع مخطوطات الكتاب الواحد مرة واحدة حتى يتسنى نشره وتحقيقه . وتتطلب عملية التحقيق والنشر وضع معايير لما يجب ان ينشر وتطبق هذه المعايير لوضع خطة لما ينشر كل سنة . ويستعان بدليل العلماء فى تحديد أفضلهم لتحقيق كتب معينة . ويكون من مهام المركز الاقليمى وضع قواعد موحدة للنشر والتحقيق والخدمة يلتزم بها العلماء المساهمون ويراجعها المركز للتأكد من تحققها فى كل حالة ، حتى لا تخرج نشرات هزيلة لا يعتمد عليها علميا .

ويتضمن منهج النشر والتحقيق والخدمة ذلك الجانب الذى تحدثنا عنه وهو التكشيف وهو يدخل فى باب خدمة النص عن طريق تحليله ، وليس فقط عن طريق التحقيقات والتعليقات العلمية .

سـابعا : ما حول النصوص

تتعلق الخطوة السابقة بالنص نفسه سواء من حيث الاقامة والشكل أو من حيث التعليق أو من حيث التحليل والتكشيف . واذا كان الحصول على المخطوط ونشره غاية في ذاته الا أنه كذلك وسيلة الى غاية أهم هى دراسة المحتوى الفكرى نفسه ، وهى الغرض النهائى من كل ما سبق ، لان مادة المخطوطات ستكون هى الاساس الذى نعتمد عليه فى كتابة تاريخ العلوم الاسلامية والعربية ، وفي دراسة التراث الفقهى ، وفي البت في القضايا المعاصرة ، الخ . وهذا يتطلب مجموعات ضخمة من العلماء كل فى فرع تخصصه حتى تكشف عن كل الجوانب السابقة ولا يكون هناك أى جانب من جوانب حياتنا الفكرية لم يدرس ولم يكشف عنه .

والان وبعد ان حددنا المهام والخطوات المطلوبة ، أرجوا أن يكون قد اتضح ثقل المهام وأنه لا بد من انشاء المركز الاقليمى والمراكز الوطنية للتراث ، كما أرجو أيضا أن يكون دور كل قد اتضح . فالمركز الاقليمى يتولى التنسيق ووضع الخطط ويحدد لكل مركز وطنى مهامه ونصيبه فى عمليات التنفيذ . كما يقوم بالعمليات التى تحتاج الى التوحيد ، مثل وضع التشريعات ، ووضع قواعد موحدة للفهرسة وقواعد محددة للنشر والتحقيق والخدمة، ووضع الخطة العامة للجمع والنشر، ويشرف على وضع معايير اعداد المشتغلين بالتراث . وبديهى أن هذا يتطلب أن تكون له مجلته ومطبوعاته . وبديهى ايضا أنه سيحتفظ بكل انواع الفهارس والسجلات والادلة ، وبنسخة مصورة من كل مخطوط حتى يكون مقصدا للباحثين .

وبعد فهذه دعوة الى البحث في قضايا التراث ، ودعوة الى الاهتمام به والعمل على خدمته والدعوة موجهة الى كافة الهيئات العلمية فى وطننا العربى . وقد تصلح هذه الدراسة أن تكون ورقة عمل لمؤتمر يعقد لدراسة التراث العربى ، وأن تكون المسائل التى عرضتها فيها هى رؤوس موضوعات لما يجب أن يبحثه مثل هذا المؤتمر ، الذى يمكن أن يحدد الخطوات العملية لتحقيق المقترحات السابقة وأن يعمقها ويبحث تفاصيلها .

ووطننا العربى – بحمد الله – غنى بامكاناته ، غنى بهيئاته العلمية، غنى بارادة الخير فيه ، غنى بحب تراثه والحرص عليه ، ولعل هذا كله أن يكون دافعا للاستجابة والتنفيذ .

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ...

دكتور عبد الوهاب عبد السلام ابو النور